البطبقة العاملة ، يقولون (لا) ، نحن منحازون الى ايديولوجية ، وهذا في الحقيقة ليس موقفا ذاتيا لانهم متخرجون لحركة موضوعية للمستقبل ، يعبرون عن التطور الموضوعي للمجتمع نحو ازالة أيديولوجية البورجوازية ، لان الايديولوجية التي ستسود في المستقبل هي ايديولوجية الطبقة العاملة (الماركسية اللينينية) .

الخاصية الجمالية للفن

ثالثا : واخيرا فان الخاصية الثالثة من خصائص الفن من وجهة النظر الماركسية هي ارتباطه بالناحية الجمالية .

صحيح أن الفنان يريد أن يعبر عن الواقع لكنه لا يعبر عن الواقع الا من خلال ربطه بالمقاييس الموضوعية الجمالية ، لان الانسان له حس جمالي ، فمثلا ، الانسان عندما يرى صورة جميلة ، او تمثيلية جيدة ومبنية بناء دراميا سليما ، او يستمع الى مقطوعة موسيقية لطيفة، فانه يعبر عن اعجابه بها ويقول هذا عمل جميل . اما الاشياء التي لا تعجبه فانه يعطي عليها حكما سلبيا . ان الجمال في الحقيقة هو تعبير عن الواقع الموجود في الطبيعة ، والموجود ايضا في النشاط الانتاجي في عمل الناس وفي مقاييسهم الخلقية ، لذلك فان الفنان عندما يعبر عن الواقع ، ويعكس الواقع بنموذج فني ، بتمثال معين ، انما يعبر ايضا عن الجمال .

صحيح ، نحن نلبس الملابس من اجل ان نتقي شر البرد ، ولكن الملابس ينبغي أن تكون جميلة ، ينبغي أن لا تكون غير متناسقة ، بمعنى ان لا تكون المقاييس الموضوعية فيها مخروقة .

العمل الفني اذن ينبغي ان يقوم على اساس مقاييس الجمال الموضوعية وبدون ذلك لا يصبح عملا فنيا . لكن الاشكال الاخرى للتعبير عن واقع الحياة المادية ، عن شروط حياة المجتمع ربما .

اذن عندنا ثلاثة مقاييس اساسية للفن من وجهة النظر الماركسية اللينينية :

اولا ـ ان الفن تعبير ديالكتيكي جدلي عن واقع الحياة المادية .

وثانيا ـ هو ذو وصلة مباشرة بالايديولوجية ، ويعبر عن ايديولوجية هذه الطبقة الاجتماعية او تلك .

وثالثا ـ ارتباطه بمقاييس الجمال الموضوعية .

الستالينية والفن

قد نريد ان نعرف شيئا عن الفن ، والمرحلة الستالينية في الاتحاد السوفياتي ، كون هذه المرحلة قد اتسمت فتوتها بطابع يكاد يكون جافا لا يحتوي على مرونة جمالية ، اضافة الى الحدية والمباشرة والقسرية .

في الحقيقة ، ان تلك الفترة التي مر بها الاتحاد السوفياتي لها ظروفها واسبابها الموضوعية والذاتية . الاسباب الموضوعية في هذا المنهج لمعالجة الفنون يرجع الى الصعوبات التي كانت تمر بها الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت .

الفن ليس تعبيراً فوتوغرافياً عن الواقع، انه تعبير ايجابي، يتعامل مع الواقع بمنظار المقاييس الجمالية

الاتحاد السوفياتي كان منتصرا على النظام القيصري البورجوازي شبه الاقطاعي ، وقد ورث المجتمع كثيرا من المخلفات ، وبقي حتى سنة ٣٦ بالتحديد ، الطبقة العاملة ، البروليتاريا ، تخوض صراعا شديدا ضد مختلف الطبقات المخلوعة في المجتمع ، تخوض حربا طبقية استمرت لفترة طويلة من الزمن ، ليس فقط حربا داخلية اهلية ، انما جرى تدخل من قبل الدول الامبريالية ... احدى عشر دولة تدخلت ضد ثورة اكتوبر ، ولذلك وصل الاقتصاد الى مراحل متدنية جدا في بعض فروع الانتاج حتى وصلت الى ١٣ بالمئة عما كان عليه الانتاج في الزمن القيصري ، فهذا الواقع الصعب (الاقتصادي والاجتماعي) ، يبدو كأن له اثر في ضرورة شحذ الحماسة الثورية لدى الجماهير (هذه المرحلة مرت بها الصين) ـ وهلا تمر فيها ـ كان لا بد من شحذ الطاقات الثورية عبر الحماسة من اجل بناء الاقتصاد ، بناء المجتمع ، والتعويض عن سنوات التدهور التي مرت على المجتمع السوفياتي ... هذا في الحقيقة هو الظرف الموضوعي لنشوء هذه الاتجاهات .

هناك ايضا عامل ذاتي هو طبيعة القيادة الفردية التي من شأنها ان تضعف مبادرات الجماهير ، تضعف الانتاج الخلاق بمختلف الميادين سواء في الميادين الانتاجية ، في الميادين السياسية ، في الميادين الفكرية ، وفي ميادين الادب والفن ... انها كانت مرحلة ، وكان من الطبيعي ان ينشأ هذا الاسلوب من الطرح الفني في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع السوفياتي ، فكان من الخطأ ان يستمر الى فترة اطول ، واستمراره في الحقيقة هو تعبير عن دور العامل الذاتي الذي لعبته قيادة ستالين .

خصوصية الادب الفلسطيني

ثمة من يطالب بفن فلسطيني طبقي . ولتوضيح هذه المسألة نريد ان نوضح ان الشعب الفلسطيني له خصائصه ... خصائص تكوينه التي تختلف في جوانب معينة عن تكوين الشعوب الاخرى . وهذا نابع من كون اعداد كبيرة من الجماهير الفلسطينية الواسعة ، اضطروا للهجرة عن الارض ، وسكنوا مختلف الاقطار العربية وغير الاقطار العربية . فعندما نتحدث عن الاصطفاف الطبقي لشعب من الشعوب ، المفروض ان يكون على ارضه ، وفي اطار المجتمع ، فنقول : (هذه طبقة عاملة ، وتلك بورجوازية صغيرة ، وهذه طبقة رأسمالية ... الخ) فاذا اخترنا ما تبقى من الارض الفلسطينية التي يتواجد عليها الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ، هناك مجتمع فلسطيني متكامل فيه اصطفاف طبقي (عمال ، فلاحين ، بورجوازية صغيرة وفئات مثقفة ، وفيه فئات شبه اقطاعية) ... هناك من الممكن ان يكون الفرز على اسس صحيحة ، يبقى الشعب الفلسطيني خارج الارض ... هذا الشعب اقتلع من ارضه ... صار في لبنان وسوريا والاردن والعراق ومصر ... الخ. يمكن ان يختلف من بلد واخر ، ولكن يبقى طابع هذا الشعب انه في غالبيته (حتى خارج الوطن الفلسطيني) من الطبقات الكادحة ، عمال وعمال زراعيين وبورجوازية صغيرة ومثقفين ، لكن كفاحهم الاساسي ليس مع الطبقات المستغلة في هذه الساحة او تلك من ساحات الوطن العربي ، انما كفاحهم الاساسي هو باتجاه تحرير الارض الفلسطينية ، لذلك يصبح من الصعوبة تناول مسألة الاصطفاف الطبقي داخل الشعب الفلسطيني بسبب هذه الخصوصية ... مثلا ، المخيمات ، فانها تتكون من الكادحين والمسحوقين حتى اكثر من البروليتاريا اللبنانية ، واكثر انسحاقا من البروليتاريا والعمال الاردنيين والسوريين والعراقيين، ولكن اذا اردت تصنيفهم من حيث موقعهم في نظام علاقات الانتاج ، فانك لا ترى لهم موقعا من حيث نظام علاقات الانتاج ، لكن من حيث موقعهم الحقيقي ، فانهم يعيشون حالة انسحاق ضمن ظروف الحياة . اما داخل فلسطين فهناك اساس للصراع الطبقي ، ولكن عندما اقول لا يوجد صراع طبقي للشعب الفلسطيني خارج فلسطين المحتلة ، فانما اعني ان هذا الصراع ضعيف . فالشعب الفلسطيني ، بناء على هذا الواقع ، حمل السلاح ، لان الكفاح المسلح هو شكل من اشكال الكفاح السياسي ، هو مستوى اعلى من الكفاح السياسي الاعتيادي ، فالشعب الفلسطيني بالتأكيد يملك الحق عندما يعتبر الكفاح المسلح مسألة استراتيجية في صراعه ، لان الارض السليبة فلسطين لا يمكن استعادتها وتحريرها عبر الكفاح السياسي المجرد ، لان اسرائيل قوة عسكرية لا يمكن التغلب عليها الا عن طريق البندقية ، وهذه مسألة ضرورية مثلما الشكل الاقتصادي والشكل الفكري ضروريان ايضا ... اقول مثلما نكافح بالبندقية ينبغي ايضا ان نكافح بالفكر ضد الحركة الصهيونية وافكارها واتجاهاتها ، ليس فقط ضد الصهيونية انما ضد الافكار الرجعية في المنطقة العربية ، والافكار البورجوازية في طرحها لحل القضية الفلسطينية ، وافكار البورجوازية الصغيرة وبرامجها لحل القضية الفلسطينية .

كل هذه الصراعات ينبغي ان تنعكس في الشريط السينمائي ، وفي المعالجات السينمائية ، وفي كافة اشكال الفنون الاخرى ، مع التأكيد على الشريط السينمائي باعتباره اكثر الادواة الفنية قدرة على الانتشار والتأثير . لنتذكر مقولة (لينين) « من بين جميع الفنون ، السينما هي الاهم » .

ممتابلة

حوار مع القاص والروائي:

عبد الرحمن مجيد الربيعي

ع . م . الربيعي :
ثمة مراجعة لمصطلح "الواقعية الاشتراكية"
قصصي تنضم لعملية الصراع ضد قوى الاستغلال والفساد

اثناء وجود مندوبة الصفحات الثقافية ، في بغداد ، التقت بالقاص العراقي « عبد الرحمن مجيد الربيعي » المعروف بغزارة انتاجه ، حيث اصدر حتى الان حوالي ثمان مجاميع قصصية ، اضافة الى ثلاث روايات . والربيعي يعمل حاليا سكرتيرا لتحرير مجلة « الاقلام » العراقية .

وقد اجرت مندوبتنا حوارا معه هذا نصه :

س ١ ـ كثير من الحديث المتناقض يدور حولك منذ بزوغك في عالم القصة والرواية ، هل نستطيع ان نعرف منك هويتك ؟ من انت تحديدا ؟

ـ لا ادري ما هو المقصود بالضبط من قولك « الحديث المتناقض » ولكنني اجيب عليه وفق تصوري الاول للسؤال بأن اي عمل ادبي يجب ان يثير اشكالا وان لا يكون له موقع حيادي سواء بالرفض او القبول ، بالسلب او بالايجاب . العمل الادبي المهم هو الذي لا يرتضي صفة واحدة ولا لونا واحدا ، هو الذي تختلف فيه وجهات النظر وتوزع ، وفق المنطلقات والنوايا . اما ان تريدي مني جوابا عن هويتي ومن انا ؟ فأظن ان مجموع اعمالي يجيب على هذا السؤال ، قد يخطر في ذهني جواب سريع هو انني مواطن عربي فتح عينيه على الخطأ الذي يسور وطني الكبير ، وها انا احاول جاهدا ان اساهم ضمن قدراتي المتواضعة في عملية وأد هذا الخطأ . وهي مسألة ليست سهلة ، ومهمة ثقيلة . ولكن هذا قدري كما هو قدر زملائي الذين تسلحوا بالكلمات في هذه الحرب اللعينة والغادرة ايضا .

س ٢ ـ يلاحظ ان قصصك وروياتك تدور حول محورين : القمع والحرمان الجنسي ، وثانيا عدم الاستقرار والاحباط السياسي ، كيف تبلورت هذه التجربة لديك ؟

ـ اليس هذان المحوران هما من اهم كوابح حياتنا العربية ، انهما عقبتان يجب ان نصارعهما بقوة ، تطلعي الى مساحة الوطن العربي لتري ماذا فعل بنا هذا القمع ؟ وأي استلابات لعينة امسكت بنا عندما شرعته بعض الانظمة في وجه شعوبها ؟

والحرمان الجنسي ، انظري الانطفاء في العيون، واقرئي سطور الشبق المتكسر ، راقبي هذا التلهف الفائض ، واستقرئي كل ما يجري من مردودات ستجدي ان لهذه الجدران القاسية جبروتها في تحطيم اي عناق صاف ، في فتح الابواب للريح الصافية والوئام الجميل .

لكن ليس هذان المحوران هما كل شيء ، قد ينطبقان بشكل واضح على مجاميعي وروايتي الاولى . لكن في اعمالي الاخيرة حدث هناك تحول ما ـ ان جاز لي ان استعمل كلمة تحول ـ وخاصة في السنوات التي اعقبت ثورة تموز ١٩٦٨ في العراق حيث بدأنا ككتاب نؤشر مهماتنا بشكل ادق وهي مهمات تتلاءم والحياة الجديدة .

اما النقطة الاخرى حول عدم الاستقرار والاحباط السياسي فهما ايضا من ملامح المرحلة الاولى ، ولعل روايتي « الوشم » كانت التكثيف الختامي لها بعد ان وزعتها على عدد من القصص القصيرة .

وتبلور التجربة لا يأتي الا من خلال المواصلة والاستمرار ، اعتقد بأنني دؤوب بعض الشيء ، وان تجاربي لا تنقطع ، انني داخل مختبر ، وكل قصة عندي تحمل هما فنيا مستقلا في ملامحه الاخيرة ، ولكنه ينضوي ضمن عملية التجريب ، ولعل مجموعتي الجديدة والمعدة للنشر (الافواه) ستوضح هذا كثيرا ، ومع هذا فأنني لا اعتبر تجربتي قد تبلورت لسبب بسيط هو انها ما زالت تحمل عنفوانها واستمراريتها .

س ٣ ـ كيف تفهم الالتزام في الادب ؟ وهل بقيت الواقعية الاشتراكية كما هي ؟ ام ان ثمة مفهوما جديدا لها ؟

ـ ليس المهم المصطلحات ولا التنظير للآراء بالنسبة للمبدع ـ اما الناقد فأمره اخر ـ ولكن المهم العطاء بصورته النهائية ، اما الالتزام في الادب فأعتقد ان كل المؤشرات التي طرحت حول قصصي لم تشكك في انني كاتب ارصد حياة المواطنين في العراق خاصة والوطن العربي عامة وتحاول قصصي ان تنضم لعملية الصراع ضد كل القوى المستغلة والفاسدة التي تنام على صدورنا بهويات وواجهات متعددة ولعينة . انني افهم الالتزام ان يكون الكاتب ذا قضية ، وقضية حميمية وساخنة . اما بالنسبة لمصطلح الواقعية الاشتراكية فأعتقد ان هناك عملية مراجعة له ، لان الادب الجديد يعزز مصطلحاته الجديدة ايضا ، وقد قرأت عن مؤتمر للنقد عقد في بولندا اخيرا انه قد بدأ يراجع المصطلحات وخصوصا « الواقعية الاشتراكية » بالذات .

س ٤ ـ كيف برز تأثر/والتزامك بالقضية الفلسطينية في ادبك ؟

ـ هل يسأل المرء متى بدأ جريان الدم في عروقه ؟ ان فلسطين فينا ، عرفتها منذ ان بدأت اتعرف على ملامحي واسمع خفقات قلبي لانها تسكن الهواء الذي نتنفسه ، وتنتمي الى وجيب القلب والى أمان الرأس وحدقات العيون . بعد هذا ماذا اضيف ؟!

س ٥ ـ ما الجديد عندك ؟

ـ مجموعة قصص بعنوان « الافواه » سانشرها في لبنان ، وثمة طبعات جديدة من كتبي ساهمت في نشرها دارا نشر (العودة) و (الطليعة) .

اعداد سهام وهبة